من الجنود الذين تمرّدوا ثم لما دخلنا الاستانة وقفنا خاضعين لاوامر نواب الامة

وكان مع شوكت باشا في ٢٣ ابريل ٢٢٨٨٤ من الجنود و٩٣٥ من الضباط و٣٣١٢ فرساً و٤٨ مدفعاً و٨ مدافع سريعة الطلقات وكان عدد الجنود الحاضرة في الاستانة ٢٩٠٠٠ فكانت اقوى من جنود شوكت باشا عدداً وعُدداً ولم يكن بعيداً ان يستولي جواسيسُ عبد الحميد رجالَ شوكت باشا حتى يحملوهُ ويأتوا بهِ الى عبد الحميد كما فعل رجال علي فيوزي بهِ في الاسبوع السابق . وعليهِ فتغلّب شوكت باشا على حامية الاستانة ومَن فيها من الجنود مع ما عندهم من الحصون والمدافع الكبيرة يشهد لهُ بانهُ من اعظم قواد العصر

وهنا وصف المؤلف المعارك التي حدثت ناقلاً ذلك عن تقارير بعض المتطوعين الثقات وذاكراً ما رآهُ مرأى العين كل مدة الحصار والحرب . ثم عاد الى عبد الحميد فقال انهُ لم يقف مكتوف اليدين كما يظهر لغير الباحث المحقق بل استخدم كل ما لديهِ من الوسائل لكي يدير الدائرة على شوكت باشا فارسل يوسف باشا الى بلاد الارناؤوط لكي يثير سكانها على خصومهِ ولكن شوكت باشا ارسل وراءهُ اثنين من رجالهِ يتعقبانهِ ولما قبض عليهِ وفتشت امتعتهُ وُجد فيها صندوق مملوء جواهر عليها اوراق تدلُّ على ان ما فيها ادوية فلمّا فتحت وجدت مملوءة ليرات . وبمثل ذلك حاول عبد الحميد التغلُّب على خصومهِ ولكنهُ لم يفلح بل دارت الدوائر عليهِ اخيراً كما سيجيء

اللورد لستر

وما افاد بهِ علم الطب

كتب السر وليم وطسن تشاين الجراح المشهور ترجمة اللورد لستر في مجلة نايتشر فقال فقد العالم بموت لورد لستر رجلاً من اعظم رجاله رجلاً لا جدال في انهُ افاد نوع الانسان اكثر مما افادهُ اي رجل آخر قبلهُ . وعملهُ العظيم هو الانقلاب الذي احدثهُ في الجراحة علماً وعملاً ببحثهِ عن اسباب الامراض العفنة . وافل نظرة الى حالة الجراحة حتى الوقت الذي اخذ يبحث فيهِ لتقنع المرء بالتقدم العظيم الذي تقدمتهُ بعد بحثهِ

ان الخطر الناتج عن الجروح سواء حدثت عَرَضاً او كانت من عمليات جراحية شغل بال كل الذين عالجوها . ولقد بذلوا كل الوسائل لاجتنابهِ ولم تكن الغاية التي يسعى اليها

الجراحون منع الاسباب التي تعترض دون شفاء الجروح كما فعل لستر بل جعلها تلتئم فكانوا يستخدمون الوسائل التي تنمي الثم او تجعل الثم الناقص صحيحاً او تجعل الجرح يندمل . وكأنهم غفلوا عن الامر الجوهري وهو ميل الجرح نفسه الى الشفاء ولكن قام بعض الجراحين وقتاً بعد آخر واعترضوا على هذه الآراء وجاهروا بان شفاء الجرح امر طبيعي لكن قلما اعتدّ احد بقولهم و بقي الجراحون على معالجة الحالة السيئة في ظاهر الجرح حسب زعمهم واحداث الالتئام ببعض الوسائل

واول من قال بما يشبه رأينا الحاضر براسلس[1] فانهُ ظن ان في الجسم عصارة منتشرة فيهِ تحفظ صحة انسجته المختلفة وتصلحها اذا ابقت . ويجب ان يكون غرض الجراح ان يمنع تغيُّر هذه العصارة الحادث بالاكثر من الاتصال بالهواء . وفائدة الوسائل الطبية قائمة بحفظ هذه العصارة ومنع فسادها

وارتأى امبرواز باره[2] آراء مثل هذه . وقد عُرف بنوع خاص ما للطبيعة من الفعل في شفاء الجروح مما كتبهُ هذان الرجلان وعلَّما بهِ . ومن ثم مال الجراحون الى حسبان الاتصال بالهواء سيئاً لاكثر ما يقع في الجروح من الفساد . ثم لما عُرف تركيب الهواء الكيماوي حسبوا ان علة الضرر في اكسجين الهواء وكان هذا الرأي شائعاً حينما اخذ لستر يبحث في منع الفساد وكان من اول نتائج هذا الرأي ربط الجرح برباطات كثيرة وتركها عليهِ مدة طويلة لكي لا يصل الهواء اليهِ . وفي آخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر استعملت وسائل اخرى نتائجها اصلح من نتائج الوسائل التقدمة ومنها الغسل بالماء الكثير ثم اضيف الى الماء بعض المواد المضادة للفساد . وارتأى البعض ان افضل الطرق لمواساة الجروح ان تترك مفتوحة وارتأى غيرهم ان تترك لتكون عليها جلبة . ثم ان الخوف من الاتصال بالهواء قاد الجراحين سنة ١٨١٦ الى استعمال الحقن تحت الجلد بمواد تضاد الفساد وكثر استعمال ذلك ولاسيما في فرنسا وهذه المواد مثل البلسم والكفور والكحول وكلورور بدمالزنك والبود . واشار لمار باستعمال الحامض الكربوليك لمنع الفساد من الجروح قبل استعمال لستر لهُ . ولكن لم يبنَ استعمال هذه المواد على اساس علمي ولا اشتملت على اسلوب مخصوص ولذلك لم تكن نتيجة استعمالها كالنتيجة التي حصلت من بحث لستر

ولا داعي للاسهاب في وصف اعمال لستر ولكن يمكن ان يقال انهُ من حين كان تلميذاً

(١) طبيب المانى مشهور (١٤٩٠ – ١٥٤١) خالف آراء اطباء عصره وجعل قاعدة علمه البحث والامتحان ومراقبة نواميس الطبيعة (٢) الجراح الفرنسوي المشهور (١٥١٠ – ١٥٩٠)

كان ينظر الى النتائج المخيفة التي تنتج دواماً من العمليات الجراحية مما أتقن عملها وقد استنتج انها تحدث دائماً من فساد يقع في دم الجروح ومصلها وقال في نفسه انهُ اذا امكن منع هذا الفساد فالمرجح ان اخطار العمليات الجراحية تزول كلها . ولكن ان كان الفساد حاصلاً من اتصال مفرزات الجروح بأكسجين الهواء فلا سبيل لتلافي الخطر لانهُ يستحيل ان يمنع اكسجين الهواء عنها وقت العمليات الجراحية . ولكن لما ثبت باستمرار بالامتحان انهُ يستحيل على اكسجين الهواء ان يسبب اختمار السوائل الآلية ما لم يكن فيهِ جراثيم حية تقع منهُ في السوائل وان هذه الجراثيم من نوع البكتيريا رأى لستر بارقة امل لان منع الجراثيم الطائرة في الهواء ليس مستحيلاً لا سيما وانها قليلة العدد وقد يكون الهواء خالياً منها ومنعها اسهل من منع الغازات التي تصل الى كل مكان

وكان لديهِ اسلوبان لمعالجة هذه الجراثيم الاول منعها من الوصول الى الجروح وذلك بترشيح الهواء بالقطن المندوف والثاني بامانتها كما باحماء الهواء حتى تموت الجراثيم التي فيهِ . ولا شبهة في ان لستر ارتأى اولاً ان الجراثيم الحية التي تسبب الفساد تصل الى الجروح من الهواء او من الغبار الذي يقع على ما يجاور الجرح . ثم لم يلبث ان جعلتهُ التجارب يعدل هذا الرأي . ولما كان يحسب ان جراثيم الفساد موجودة في الهواء جعل يبحث عن افضل اسلوب لمقاومة فعلها هل هو تنقية الهواء منها بترشيحهِ قبلما يتصل بالجروح او قتلها متهُ . واذا اريد قتلها فما هي افضل وسيلة لذلك . اما ترشيح الهواء فلم يكن ممكناً ولذلك لجأ الى الوسيلة الثانية اي قتل الجراثيم قبلما تصل الى الجرح . ورأى ان ابسط طريقة لذلك استعمال المواد الكيماوية التي تميت الجراثيم وتسمى مضادات الفساد . ومن الغريب انهُ التفت اولاً الى الحامض الكربوليك الذي لا يزال من افعل المواد الكيماوية المضادة للفساد

وجعلت آراؤهُ وطرقهُ تتنوع دواماً وتتسع نطاقها حسبما تقتضيهِ التجارب فحسب اولاً ان العدو الذي عليهِ مقاومتهُ البكتيريا بنوع عام ولكنهُ لم يلبث ان رأى ان للبكتيريا انواعاً مختلفة ولكل نوع منها حياة خاصة وصفات خاصة وانها تنتج انواعاً مختلفة من السموم او لا تنتج شيئاً سامّاً وان الضرر الذي ينتج من دخول الميكروبات الى الجروح ليس سببهُ بالاكثر الانواع التي تسبب الفساد . ومهما تنوعت آراؤهُ واساليبهُ في معالجة الجروح بقي على رأي واحد من حيث انهُ يجب ان لا تدخل البكتيريا الى الجرح حية ولكنهُ رأى ان هذه الغاية يتعذر منالها وانهُ لا بدَّ من وصول البكتيريا الى الجرح مهما استعمل من الوسائل لمنعها . وهذا قادهُ الى فرض الفاعل الذي يقاوم حصول الفساد اي القوة التي في الانسجة نفسها لمنع

غو هذه الميكروبات وهذا هو الامر الذي عُلِّق عليه الاهمية الكبرى ولذلك حاول مدة سنين كثيرة ان يقلل او يمنع تهييج انسجة الجرح وفي الوقت نفسه يمنع ان امكن دخول البكتيريا اليه ولذلك كان يغير دواماً اسلوبهُ في مواساة الجروح حتى حيَّر الذين لا يعرفون الاسباب العلمية التي كان يبني عليها هذا التغيير

وكان يرمي الى غايتين الواحدة زيادة تعقيم المواد والمواد المختلفة التي تماس الجرح والغاية الثانية اجتناب المواد المهيجة على قدر الامكان ومنعها من ملامسة الجرح لكي لا تمنع فعل الانسجة الطبيعي في قتل الميكروبات التي يمكن ان تدخلهُ رغماً عن كل طرق الوقاية

ومَن يطالع مؤلفاته التي طبعت منذ سنة او سنتين يجد فيها كيف جرى وراء هذين الغرضين بالصبر والمواظبة . ولعلَّ هذه المؤلفات منقطعة النظير من هذا القبيل . ومما امتاز بهِ انهُ لم يكن يترك امراً من الامور التي تعدُّ عادة صغيرة لا يعبأ بها فاذا امتحن امتحاناً ولم تأتِ نتيجتهُ حسب ما انتظر جعل يبحث عن سبب ذلك فيتعلم اموراً كثيرة تفوت غيرهُ من الذين لا يدققون تدقيقهُ

لكنهُ لم يقتصر بحثهُ على معالجة الجروح ومنع التعفن والفساد منها بل حالما رأى انهُ صار يستطيع منع الفساد جعل يبحث عن الاساليب التي يتقن بها ذلك فانفتح امامهُ مجال واسع للعمل فاستنبط اساليب للعمليات لم يتقدم عليها احد قبلهُ بل كان الجراحون المتقدمون عليهِ يعدونها من الجرائم مثل عمليات تقصير العظام لمعالجة عيوب الخلقة ومعالجة كسر الرضفة وعمليات نزع الغدد السرطانية في سرطان الثدي

وهناك امر آخر يجب ان لا ينسى وهو ان مباحث لستر هي التي بثت الحياة في علم البكتيريا العلم الذي سيكون لهُ المقام الاول في علم الطب . نعم انهُ لم يكتشف للبكتيريا ولا كان لهُ شأن كبير في مباحث هذا العلم ولكن مع ذلك يجب ان ينظر اليه والى باستور وكوخ كواضعيهِ . فقد بقيت البكتيريا حتى زمن باستور محسوبة بين الامور التي عدم معرفتها ولكن لم يكن درسها مهماً وغاية ما كان ينظر فيهِ اليها هو هل تتولد من نفسها في السوائل الآلية او تولد من بزور من نوعها مثل سائر الاحياء . اي ان مدار البحث كان عن التولد الذاتي فاثبت باستور انها لا تتولد من ذاتها وان التولد الذاتي اسم لا مسمَّى لهُ في عالم الاحياء وان كل حي متولد من حي وان الاختمار والفساد سببهما بعض الاحياء . ولكن لم يطبق احد نتائج باستور على عمل الجراحة حتى قام لستر وفعل ذلك وحالما بيَّن انهُ يمنع هذه الاحياء عن الجروح تمتنع آفات كثيرة تصيب الانسان . جعل درس هذه الاحياء يتقدم

بسرعة . ولقد كان لستر مشتغلاً بهذا الموضوع ولكنهُ لم يطلع فيهِ الاَّ بعد ان تناولهُ باستور وكشف سرَّهُ بنظره الصائب غير ان التقدم الاعظم فيهِ بدأ لما تناولهُ كوخ واثبت بالدليل ارتباط هذه الاحياء بالامراض وبيَّن كيف تميز وتلوَّن وتربَّى ومن ثم صار هذا العلم سهلاً مثبتاً ولولا باستور ولستر وكوخ وبنوع خاص لولا تجارب لستر العملية التي اثبتت اهمية هذه الاحياء لاستحال علينا ان نعرف هل كان من المحتمل وجود هذا العلم الآن بين العلوم

ولا ارى بي حاجة ان اقول شيئاً عن اللورد لستر من حيث هو رجل فان كل الذين عرفوهُ وعاملوهُ يعلمون انهُ كان حي الضمير ينظر في كل ما يُلقَت اليهِ نظر المنصف ويتألم جدًّا لآلام الناس و يبذل اقصى جهدهِ في تخفيفها وازالتها . حينما نُقل الى لندن كان عندهُ في مستشفى ادنبرج كثيرون من المصابين بامراض في الحبل الشوكي ولما رأى انهُ لا بدَّ من اخراجهم من المستشفى بعد خروجهِ منهُ نقلهم الى لندن وكان يعالجهم ويمرضهم على نفقتهِ الى ان شفوا

تقدم التدبير المنزلي وتاريخهُ[1]

المطلب الثاني

لم اكد ارى كاتباً او كاتبة مما بحث في ما كانت عليهِ المرأة الغربية في القرن السابع عشر والثامن عشر فان فيهما اخذ التقدم الاوربي الحقيقي باسباب الارتقاء ونحن نراهُ اليوم بالغاً اوج العظمة والقوة والمجد . هذا التقدم الذي نراهُ ثابتاً نامياً كان الفضل فيهِ لاتساع مدارك المرأة حتى ان اعاظم رجال الغرب يعزون كلَّ ارتقاء اوربي الى المرأة الغربية فهي في البيت السيدة والمرشدة والمربية والمديرة وفي الاجتماعات واسطة عقدها وفي البذل والاحسان صاحبة الكف الندية على تخفيف و بلات الانسان وفي سائر الاعمال والاشغال شاركة للرجل تنوب عنهُ في كثير منها . فمنذ قرون كثيرة لم يكن الرجل الالماني يجرأ ان يترفع على امرأتهِ كبراً وسلطة ولا كانت المرأة امة مملوكة بل كانت عضواً في الاجتماع مساوياً للرجل في كل امر . وكان الرجل يشركها في مهامهِ ويقدم لها اعظم احترام واكرام وكان لها مقام معروف في المجالس الرسمية كالمحاكم وغيرها فتبدي من الآراء ما يعود على امتها بالخير والاسعاد على ان قوانين الالمان في ذلك الاوان كانت شديدة الوطأة جدًّا على الرجل والمرأة

(١) خطبة القتها حضرة السيدة رحمة صروف في الجامعة المصرية